الكتب المدرسية: حلم عابر وواقع مقيم

مها الريماوي

في لحظة ما انساقت نفسي وراء حلم سيطر عليَّ منذ اليوم الأول الذي سمعت فيه عن البدء في تصميم كتب مدرسية فلسطينية، يومها وبدافع الرغبة شاركت وجدانياً، وعن بعد، في اختيار نصوص كتاب اللغة العربية للصف السادس، وعندما ولد الكتاب، ولم يكن مخلصاً في جوهره لمضمون الحلم والرغبة، فتحت حواراً مع نفسي، في محاولة لإيجاد الأعذار لمن قاموا بتأليف الكتاب، باعتبار أنها أول تجربة لهم ولنا في هذا المجال، وبأن المرحلة مرتبكة، وحتى كدت أقنع نفسي بذلك، وأؤكد لها أن السنوات القادمة ستحمل بالتأكيد ما هو أفضل وأجدى وأعمق، وسبيلي إلى هذا الأمل أن الكتاب المدرسي على الرغم مما فيه من عقم وقصور فإنه أيضاً، وفي الوقت ذاته، قد تضمن نوعاً من الرؤية وإرهاصات قد تؤدي إذا ما تم الكشف عنها والعمل على تغذيتها وتنميتها وتعميمها إلى ما هو أفضل.

وأخذت أردد يكفي من هذه البداية ما أرهصت له، ولو بالإشارة فقط، أليس من الجديد والمجدي أن كتابنا المدرسي يضم بين طياته جزءاً من الأدب العالمي، ممثلاً في رواية الشيخ والبحر لأرنست همينجوي، وقصة لسميرة عزام، وقصائد لمحمود درويش، وسميح القاسم، وعبد اللطيف عقل. وهكذا استمرت عملية توالي ظهور الكتب فصلاً بعد فصل وسنة بعد سنة، وما كان رغبة أصبح أمنية مستحيلة على الطريقة الفلسطينية، وما كان حلماً أصبح كابوساً يقض مضاجع الطلاب والمعلمين، فجاء كتاب السابع ليدور في فلك كتاب السادس، واعتمد في بنيته الداخلية النسقية نفسها بالتركيز على المقالات المعرفية لدرجة جعلت منه كتاباً متخصصاً في سير الأعلام والمؤسسات. فأحد أجزاء الكتاب تضمن بين جنباته نصوصاً عن كل من الهلال الأحمر، والمنظمة العربية للتربية والثقافة، واليونيسيف، والكلية العربية في القدس، وهدى شعراوي، وأحمد زويل، والإنترنت، ولا أنوي الخوض في مدى أهمية وعمق هذه الموضوعات ولا في فاعليتها التعليمية، ومدى مقدرتها على إثارة مراكز الاهتمام لدى الطلاب، وإطلاق طاقاتهم الإبداعية، وإنما سأسأل: ألم يكن هذا النوع من النصوص على حساب نصوص أخرى ونوعيات أخرى، وبالتالي ألم يكن انحيازاً للغة على حساب لغة أخرى؟ ومع ذلك، بقيت أبحث عن النوعي في الكتاب، وأمني النفس بالقادم، وأعيد الترديد أن الكتاب الجديد قد حمل في أحشائه نصاً من رواية فلسطينية «رجال في الشمس»، ومع أنه أصابها التشويه أثناء عملية النقل إلى الكتاب المدرسي الذي لم يعتمد في عملية النقل تلك سوى مبدأ الحذف، والتحريف، والتقطيع، والبتر.

وأضيف أن الكتاب، أيضاً، حمل قصة من الأدب العالمي «بائعة الكبريت»، صحيح أنه قد سقطت منها مقاطع وعبارات تقارب في حجمها صفحة من صفحاتها الثلاث، وقلت أسقطت ولم أقل أنها نتيجة لعملية التصرف أو النقل التدريسي، لأن القصة لم تذيل بالكلمة التي صاحبت معظم نصوص الكتاب، ألا وهي كلمة «بتصرف»، تلك الكلمة التي أصبحت في ذهن المعلمين والطلاب تعني «تخريب».

وهذه الوضعية تذكرني برواية قرأتها مرة تحكي عن قصة كاتب يكتشف قبل بدء حفلة توقيع كتابه الذي دعاه الناشر إليها، يكتشف أن الناشر قد تصرف في كتابه، فمن غيظه يخرج تائهاً فيلتقي بامرأة وعندما يتعرف عليها، يكتشف أنها زوجة الناشر فيقتلها ويعود من حيث أتى. ومن يومها وأنا أفكر في خطورة التصرف في أفكار الآخرين، وهل تصل حد الجريمة؟ ولكوني أيضاً لم أر مبرراً أو داعياً للتصرف لا بخصوص حجم القصة، ولا طبيعة المادة التي تم حذفها، فهي ليست مما هو محرم طبقا لما أصبح عرفا في المناهج الفلسطينية.

وما رافق ميلاد كتاب السابع انسحب على كتاب الثامن الذي حمل، أيضاً، جديده على مستويي الإنجاز والخيبة، لأعود إلى الحلم باعتباره أكثر أمناً من الواقع، فحلمت مع أخوتي وأخواتي الذين أدرسهم، وحلم معنا الشعب الفلسطيني أن كتاب التاسع قد جاء زاخراً بالقصائد للسياب، ودرويش، ووليد الخزندار، وخليل حاوي، وزكريا محمد، وغسان زقطان، وغادة الشافعي، وبالقصص الفلسطينية والعربية لمحمود شقير، وزكريا تامر، ومسرحية لسعد الله ونوس، وخطبة الهندي الأحمر، وقصص عالمية، ونصوص من التراث العربي القديم، تمثل مختلف النتاجات الصوفية، والمعتزلة، والفلسفية. ومع بداية العام الحالي انسحب الحلم وحضر الواقع بحقيقته ... تلك الحقيقة التي دفعتني للكتابة وفاء للحلم ... الحلم الذي أصبحت أخاف عليه من أن يضاف إلى الأحلام الفلسطينية المكدسة في خزانة المخيلة الفلسطينية، ورفضاً للواقع .. واقع الكتب المدرسية، ورأفة بطلابنا وأبنائنا، ولكي لا أبقى انتظر يوماً يقيم فيه الحلم في الواقع ويتجسد فيه حقيقة.

مها الريماوي – طالبة في جامعة بيرزيت